

ابن كثير وسلوکه طریقہ تفسیر القرآن بالقرآن

وقد سلک ابن کثیر رحمہ اللہ فی التفسیر هذه الطریقہ تفسیر القرآن بالقرآن، وإذا ذکر آیة فیها شيء من الإجمال ذکر الآیات الأخرى التي فيها شيء من التفصیل، وقد تكون المجملة مفصلة بما بعدها؛ مثل قوله تعالى: { إِنَّ الْإِنْسَانَ حُلْقَ هَلْوَعًا } فسر الهلوع بالآية التي بعدها وهي قوله: { إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَرُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْحَيْرُ مَتُوعًا } فهذا تفسیر القرآن بالقرآن. وأما في القصص؛ فإنها تكون أیضاً كثيرة، يکثر الإجمال وبکثر التفصیل. ففي مثل قول الله تعالى عن قصة موسى { وَأَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَهَا تَهْرَبَ كَانَهَا حَانٌ وَلَى مُدْبِرًا }؛ ففيها ذکر { كَانَهَا حَانٌ } والجان يعم ما كان متنيطاً من الجن، ويعم أنواعاً من الأفاعي ونحوها، ولكن بين في آیات فی سورۃ طہ: { قَالَ قَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى } هذا ذکر فيها أنها حیة وهو يعني بالجان أنه الحیة. وفي سورۃ الأعراف قال تعالى: { قَالَ لَهُ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَعْبَانُ مُبِينٌ } والتعبان نوع من الحیات، ففصل الله تعالى الجان في الآية الأخرى: { كَانَهَا حَانٌ } بقوله: { فَإِذَا هِيَ تَعْبَانُ } { فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ } وما أشبه ذلك. فمثلاً في قصة موسى خاطبه الله تعالى بقوله: { إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَمْكَنَ مَا يُوحَى أَنْ أَفْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَفْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ } فَلِيلِيَّهِ الْيَمِّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوُّهُ لَهُ } في هذه الآية نوع من الإجمال فصل في سورة القصص في قوله تعالى: { وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَمْ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالَ فِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحَافِي وَلَا تَخْرِنِي } إلى قوله: { قَالَ قَطْطَةُ الْأُلْ فَرَعَوْنَ } فقوله: { يَأْخُذُهُ عَدُوُّهُ لَهُ } فسر في الآية الأخرى بأنه فرعون { قَاتِلَتْهُ الْأَنْجَوْنَ لَيُكَوِّنَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرَّنَا } إلى آخر الآیات. وكذلك في کثير من قصص الأنبياء تأتي مجملة كما في سورۃ الحاقة: { قَاتِلَتْهُ الْأَنْجَوْنَ فَأَهْلَكُوا بِالظَّاغِيَّةِ } أجملت "الظاغیة" ها هنا، وفصلت في مكان آخر أو في أماكن كقوله تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صِنْعَةً وَاحِدَةً } ففسرت "الظاغیة" بأنها الصیحة. والإیات المجملة في مثل الثواب والعقاب، کثیراً ما يذكر الله تعالى ثواب أهل الجنة محلاً. ويفصله في موضع آخر، وكذلك عقاب أهل النار في آیات مجملة ويأتی مفصلاً في موضع آخر. يذكر أنواعاً من العذاب ما ذكرت إلا في ذلك الموضع، ومذکور آیات فيها شيء من الثواب تفصيلاً لما أجمل. ولا شك أن هذا لأن القرآن بيان، والله تعالى وصف القرآن بقوله: { هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ } يعني بین لهم الأحكام. ثم أيضاً إن الآیات القرآنية تنزل على النبي صلى الله عليه وسلم؛ تنزل عليه في بعض المناسبات؛ لأجل تشییه تثییه قلبه كقوله تثییه: { كَذَلِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَلَّتَاهُ تَرْتِيلًا } ففي حين نزلت عليه كان يكون للمناسبة أن تكون مجملة في بعض الأماكن فیحصل بذلك التثییه { لِتُبَشِّرَ بِهِ فُؤَادَكَ } . وأحياناً يحتاج إلى زيادة إیضاح؛ فتوصل وتین في الأماكن الأخرى، وبين أنقصد من هذه الجملة کذا وكذلك وأشاريا ذلك. ومن أراد الأمثلة عند كل آیة غالباً، وجد ذلك في تفسیر ابن کثیر رحمہ اللہ. وكذلك أيضاً في تفسیر الشنقطی رحمہ اللہ، سماه أضواء البيان في إیضاح القرآن بالقرآن، وهناك أيضاً تفسیر واسع لأحد علماء المصريین سماه تفسیر القرآن بالقرآن، يعني إیضاح الآیات بعضها بعض. وسبی اهتمامهم بذلك؛ أن کثیراً من الذين يفسرون قد يحملون الآیة على ما یفهمونه، ولا یتفطنون للمواضع الأخرى؛ فیقعون في الغلط. بعضهم فسر آیة الاستواء في طه في قوله تعالى: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ } فقال: استوى له ما في السماوات. يعني أن قوله: { لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ } تفسیر لـ { اسْتَوَى } يعني: ملك ما في السماوات، أو ذل له ما في السماوات. وغفلوا عن الآیات الأخرى؛ مثل قوله: { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } و { اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ } ففسروا آیة في موضع ولم یتذکروا المواضع الأخرى. كذلك بعض الحلوليين فسروا قول الله تعالى في سورۃ الانعام: { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهَرَكُمْ } فقالوا: إن الله في السماوات وفي الأرض؛ هكذا قالوا، وغفلوا عن تفسیرها بالآیة التي في سورۃ الزخرف؛ وهي قوله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ } يعني أنه إله من في السماوات، وإله من في الأرض. فيكون هذا معنی آیة الانعام: { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ } يعني وهو إله في السماوات وفي الأرض. فیتین من ذلك أن کثیراً من الذين يأخذون آیة في موضع ويحملونها على أفهمهم، قد غفلوا عن تفسیرها بالآیات الأخرى التي تین معناها؛ مع أن التفاسیر الأخرى، أو تفسیر الصحابة، أو تفسیر الأحادیث لورجعوا إليه لكان کافیاً، ولكن کثیر منهم أنهم لم کان لهم أھواء ولهم میل غفلوا عن الآیات الأخرى، وأخذوا نوعاً آخر. وقد ذکرنا قصة ذلك الجهمي الذي جاء إلى أبي عمرو القارئ وطلب منه أن یقرأ قول الله تعالى: (وكلم الله موسی تکلیما) فیین له أبو عمرو أک غفلت عن قول الله تعالى: { وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلْمَةُ رَبُّهُ } فإنک لا تقدر على أن تحرف تلك الآیة. وكذلك الذين فسروا { وَكَلْمَةُ رَبُّهُ } : قالوا: جرحه ربه، غفلوا أيضاً عن قول الله تعالى: { إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي } إن الله تعالى بين کلامه وأن قوله: { وَكَلْمَةُ رَبُّهُ } يعني بكلام مسموع، وغفلوا أيضاً آیات النداء التي فيها: { وَإِذْ نَادَ رَبُّكَ مُوسَى } { إِذْ نَادَهُ رَبُّهُ بِالوَادِي المُقَدَّسِ طَوِي } وكذلك المناجاة { وَقَرَرْتُهُ تَحِيَّاً } فیأخذون موضعاً ویحملونه على ما یهونه ویغفلون عن المواضع الباقية، ویکون ذلك دليلاً على غفلتهم، والأمثلة کثیرة.